

فتعلمهم، ما يصلح الصلاة ويفسدها ويكملها.

فإنهم، هم والرسول، بشر عبيد لله، فلا يليق منهم الاقتراح بحسب أهوائهم، وإنما الذي ينزلها ويختار منها ما يختار بحسب حكمته، هو الله.

ولأن^(١) قولهم: ﴿لولا أنزل عليه آيات من ربه﴾ يقتضي أنه لم يأتيهم بآية على صدقه، ولا بينة على حقه، وهذا كذب وافتراء، فإنه أتى من المعجزات الباهرات، والآيات القاهرات، ما يحصل ببعضه المقصود، ولهذا قال: ﴿أولم تأتكم﴾ إن كانوا صادقين في قولهم، وأنهم يطلبون الحق بدليله، ﴿بينة ما في الصحف الأولى﴾ أي: هذا

القرآن العظيم، المصدق لما في الصحف الأولى، من التوراة والإنجيل، والكتب السابقة المطابق لها، المخبر بما أخبرت به، وتصديقه أيضاً مذكور فيها، ومبشر بالرسول بها، وهذا كقوله تعالى:

﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾ فالآيات تنفع المؤمنين، ويزداد بها إيمانهم وإيقانهم، رأماً المعرضون عنها المعارضون لها، فلا يؤمنون بها، ولا ينتفعون بها، إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب وإنما الفائدة في سوقها إليهم ومخاطبتهم بها، لتقوم عليهم حجة الله، ولثلا يقولوا حين ينزل بهم العذاب: ﴿لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزي﴾ بالعبودية، فما جاءكم رسولي ومعها آياتي وبراهيني، فإن كنتم كما تقولون، فصدقوه.

قل يا محمد مخاطباً للمكذبين لك الذين يقولون تربصوا به رب المنون ﴿قل كل متربص﴾ فتربصوا بي الموت، وأنا أتربص بكم العذاب ﴿قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾ أي: الظفر أو الشهادة ﴿ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعداب من عنده أو

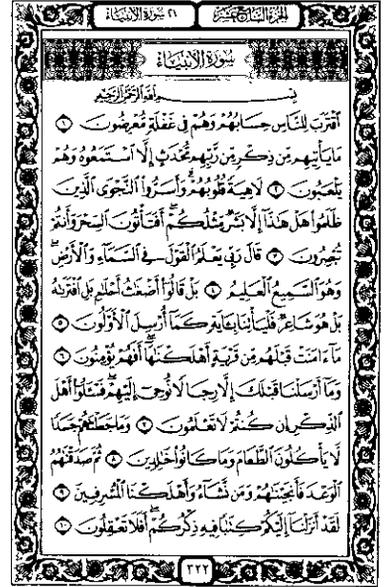
بتعليمهم، ما يصلح الصلاة ويفسدها ويكملها.

﴿واصطبر عليها﴾ أي: على الصلاة بإقامتها، بحدودها وأركانها وآدابها وخشوعها، فإن ذلك مشق على النفس، ولكن ينبغي إكراهها وجهادها على ذلك، والصبر معها دائماً، فإن العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به، كان لما سواها من دينه أحفظ وأقوم، وإذا ضيعها كان لما سواها أضيع، ثم ضمن تعالى لرسوله الرزق، وأن لا يشغله الاهتمام به عن إقامة دينه، فقال:

﴿نحن نرزقك﴾ أي: رزقك علينا قد تكفلنا به، كما تكفلنا بأرزاق الخلائق كلهم، فكيف بمن قام بأمرنا، واشتغل بذكرنا؟! ورزق الله عام للمتقي وغيره، فينبغي الاهتمام بما يجلب السعادة الأبدية، وهو: التقوى، ولهذا قال: ﴿والعاقبة﴾ في الدنيا والآخرة ﴿للتقوى﴾ التي هي فعل المأمور وترك المنهي، فمن قام بها، كان له العاقبة، كما قال تعالى: ﴿والعاقبة للمتقين﴾.

﴿١٣٣-١٣٥﴾ ﴿وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتكم بينة ما في الصحف الأولى﴾ ولو أنا أهلكناهم بعداب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزي * قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى﴾ أي: قال المكذبون للرسول ﷺ: هلا يأتينا بآية من ربه؟ يعنون آيات الاقتراح كقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾.

وهذا تعنت منهم وعناد وظلم،



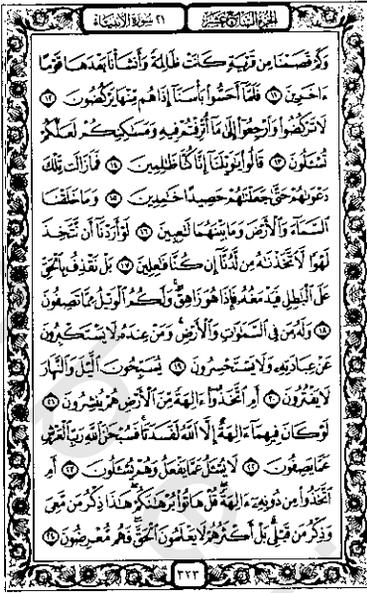
عجبها وعسافها، فيندمون حيث لا تنفع الندامة، ويعلمون ما هم عليه إذا قدموا في القيامة، وإنما جعلها الله فتنة واختباراً، ليعلم من يقف عندها ويعتر بها، ومن هو أحسن عملاً، كما قال تعالى: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً * وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جزراً﴾.

﴿ورزق ربك﴾ العاجل من العلم والإيمان، وحقائق الأعمال الصالحة، والأجل من التعميم المقيم، والعيش السليم في جوار الرب الرحيم ﴿خير﴾ مما متعنا به أزواجاً، في ذاته وصفاته ﴿وأبقى﴾ لكونه لا ينقطع، أكلها دائم وظلها، كما قال تعالى: ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى﴾.

وفي هذه الآية، إشارة إلى أن العبد إذا رأى من نفسه طموحاً إلى زينة الدنيا، وإقبالاً عليها، أن يذكرها ما أمامها من رزق ربه، وأن يوازن بين هذا وهذا.

﴿١٣٢﴾ ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى﴾ أي: حث أهلك على الصلاة، وأزعمهم إليها من فرض ونفل. والأمر بالشيء، أمر بجميع ما لا يتم إلا به، فيكون أمراً

(١) في ب: ولما كان.



ويعملون القيامة والحساب والجزاء منهم على بال، فبذلك يتم لهم أمرهم، وتستقيم أحوالهم، وتزكوا أعمالهم، وفي معنى قوله: ﴿أقرب للناس حسابهم﴾ قولان: أحدهما أن هذه الأمة هي آخر الأمم، ورسولها آخر الرسل، وعلى أمته تقوم الساعة، فقد قرب الحساب منها بالنسبة لما قبلها من الأمم، لقوله ﷺ «بعثت أنا والساعة كهاتين» وقرن بين إصبعيه، السبابة والتي تليها.

والقول الثاني: أن المراد بقرب الحساب الموت، وأن من مات، قامت قيامته، ودخل في دار الجزاء على الأعمال، وأن هذا تعجب من كل غافل معرض، لا يدري متى يفجؤه الموت، صباحاً أو مساءً، فهذه حالة الناس كلهم، إلا من أدركته العناية الربانية، فاستعد للموت وما بعده.

ثم ذكر ما يتناجى به الكافرون الظالمون على وجه العناد، ومقابلة الحق بالباطل، وأنهم تناجوا، وتواطوا فيما بينهم، أن يقولوا في الرسول ﷺ إنه بشر مثلكم، فما الذي فضله عليكم، وخصه من بينكم، فلبوا ادعى أحد منكم مثل دعواه، لكان قوله من جنس قوله، ولكنه يريد أن يتفضل عليكم، ويرأس فيكم، فلا تطيعوه، ولا تصدقوه، وأنه ساحر، وما جاء به من القرآن سحر، فانفروا عنه، ونفروا الناس، وقولوا: ﴿أفتأتون السحر وأنتم تبصرون﴾ هذا وهم يعلمون أنه رسول الله حقاً بما شاهدوا^(١) من الآيات الباهرة ما لم يشاهد غيرهم، ولكن حملهم على ذلك الشقاء والظلم والعناد، والله تعالى قد أحاط علماً بما تناجوا به، وسيجازيهم عليه، ولهذا قال: ﴿قال ربي يعلم القول﴾ أي: الخفي والجلي ﴿في السماء والأرض﴾ أي: في جميع ما احتوت عليه أقطارهما ﴿وهو السميع﴾ لسائر الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات ﴿العليم﴾ بما في الضمائر، وأكنته

بأيدينا. ﴿فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي﴾ أي: المستقيم، ﴿ومن اهتدى﴾ بسلوكة، أنا أم أنتم؟ فإن صاحبه هو الفائز الراشد، الناجي المفلح، ومن حاد عنه خاسر خائب معذب، وقد علم أن الرسول هو الذي بهذه الحالة، وأعداؤه بخلافه، والله أعلم.

تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام، وهي مكية

﴿١ - ٤﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون * قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم * هذا تعجب من حالة الناس، وأنه لا ينجح فيهم تكدير، ولا يروعون إلى نذير، وأنهم قد قرب حسابهم، ومجازاتهم على أعمالهم الصالحة والطالحة، والحال أنهم في غفلة معرضون، أي: غفلة عما خلقوا له، وإعراض عما زجروا به. كأنهم للدنيا خلقوا، وللمتعة بها ولدوا، وأن الله تعالى لا يزال يجدد لهم التذكير والوعظ، ولا يزالون في غفلتهم وإعراضهم، ولهذا قال: ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث﴾ يذكرهم ما ينفعهم ويحشهم عليه وما يضرهم، ويرهبهم منه ﴿إلا استمعوه﴾ سماعاً، تقوم عليهم به الحجة، ﴿وهم يلعبون﴾ لاهية قلوبهم * أي: قلوبهم غافلة معرضة لاهية بمطالبتها الدنيوية، وأبدانهم لاعبة، قد اشتغلوا بتناول الشهوات والعمل بالباطل، والأقوال الردية، مع أن الذي ينبغي لهم أن يكونوا بغير هذه الصفة، تقبل قلوبهم على أمر الله ونهيه، وتستمع استماعاً، تفقه المراد منه، وتسمى جوارحهم في عبادة ربهم، التي خلقوا لأجلها،

السرائر.

﴿٥ - ٦﴾ ﴿بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراء بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾ ما أنت قلوبهم من قرية أهلكناها أنهم يؤمنون * يذكر تعالى إئتفاك المكذبين بمحمد ﷺ، وبما جاء به من القرآن العظيم، وأنهم سفهوه^(٢)، وقالوا فيه الأقاويل الباطلة المختلفة، فتارة يقولون: ﴿أضغاث أحلام﴾ بمنزلة كلام النائم الهاذي، الذي لا يحس بما يقول، وتارة يقولون: ﴿افتراء﴾ واختلقه وتقوله من عند نفسه، وتارة يقولون: إنه شاعر وما جاء به شعر.

وكل من له أدنى معرفة بالواقع، من حالة الرسول، ونظر في هذا الذي جاء به، جزم جزمًا لا يقبل الشك، أنه أجل الكلام وأعلاه، وأنه من عند الله، وأن أحداً من البشر لا يقدر على الإتيان بمثل بعضه، كما تحدى الله أعداءه بذلك، ليعارضوا مع توفير دواعيهم لمعارضته وعداوته، فلم يقدروا على شيء من معارضته، وهم يعلمون ذلك وإلا فما الذي أقامهم وأقعدهم وأقض مضاجعهم وبلبل ألسنتهم إلا الحق الذي لا يقوم له شيء، وإنما يقولون هذه الأقوال فيه - حيث لم يؤمنوا به - تفتيراً عنه لمن لم

(٢) في ب: تقولوه فيه.

(١) في ب: بما يشاهدون.

أبدأ.

الأمر ثم لا ينظرون * ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴿٧﴾

وأن البشر لا طاقة لهم بتلقي الوحي من الملائكة ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ فإن حصل معكم شك وعدم علم بحالة الرسل المتقدمين ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾ من الكتب السالفة، كأهل التوراة والإنجيل، ويخبرونكم بما عندهم من العلم، وأنهم كلهم بشر من جنس المرسل إليهم.

وهذه الآية وإن كان سببها خاصاً بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين لأهل الذكر^(١)، وهم أهل العلم، فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين، أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها، أن يسأل من يعلمها، ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم، إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه.

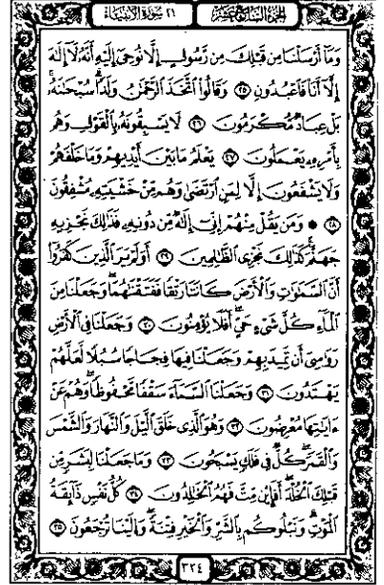
وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم، نهي عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، ونهي له أن يتصدى لذلك، وفي هذه الآية دليل على أن النساء ليس منهن نبيه، لا مريم ولا غيرها، لقوله ﴿إلا رجالاً﴾.

﴿١٠﴾ ﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون﴾ لقد أنزلنا إليكم - أي المرسل إليهم، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب - كتاباً جليلاً، وقرأنا مبيناً ﴿فيه ذكركم﴾ أي: شرفكم وفخركم وارتفاعكم، إن تذكركم به ما فيه من الأخبار الصادقة فاعتقدتموها، وامتثلتم ما فيه من الأوامر، واجتنبتم ما فيه من النواهي، ارتفع قدركم، وعظم أمركم، ﴿أفلا تعقلون﴾ ما ينفعكم وما يضركم؟ كيف لا ترضون ولا تعملون على ما فيه ذكركم وشرفكم في الدنيا والآخرة، فلو كان لكم عقل، لسلكتم هذا

﴿٧-٩﴾ ﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون * وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين * ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين﴾ هذا جواب لشبه المكذبين للرسل القائلين: هلاً كان ملكاً، لا يحتاج إلى طعام وشراب، وتصرف في الأسواق، وهلاً كان خالداً؟ فإذا لم يكن كذلك، دل على أنه ليس برسول.

وهذه الشبه ما زالت في قلوب المكذبين للرسل، تشابهوا في الكفر، فتشابهت أقوالهم، فأجاب تعالى عن هذه الشبه لهؤلاء المكذبين للرسل، المقرين بإثبات الرسل قبله - ولو لم يكن إلا إبراهيم عليه السلام، الذي قد أقر بنبوته جميع الطوائف، والمشركون يزعمون أنهم على دينه وملته - بأن الرسل قبل محمد ﷺ، كلهم من البشر، الذين يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، وتطراً عليهم العوارض البشرية، من الموت وغيره، وأن الله أرسلهم إلى قومهم وأممهم، فصدقهم من صدقهم، وكذبهم من كذبهم، وأن الله صدقهم ما وعدهم به من النجاة والسعادة لهم ولأتباعهم، وأهلك المسرفين المكذبين لهم.

فما بال محمد ﷺ، تقام الشبه الباطلة على إنكار رسالته، وهي موجودة في إخوانه المرسلين، الذين يُقرُّ بهم المكذبون لمحمد؟ فهذا الإزام لهم في غاية الوضوح، وأنهم إن أقروا برسول من البشر، ولن يقولوا برسول من غير البشر، إن شبههم باطلة، قد أبطلوها هم بإقرارهم بنفسادها، وتناقضهم بها، فلو قدر انتقالهم من هذا إلى إنكار نبوة البشر رأساً، وأنه لا يكون نبي إن لم يكن ملكاً مخلدًا، لا يأكل الطعام، فقد أجاب [الله] تعالى عن هذه الشبهة بقوله: ﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي



يعرفه، وهو أكبر الآيات المستمرة، الدالة على صحة ما جاء به الرسول ﷺ وصدقه، وهو كاف شاف، فمن طلب دليلاً غيره، أو اقترح آية من الآيات سواء، فهو جاهل ظالم شبه لهؤلاء المعاندين الذين كذبوه وطلبوا من آيات الاقتراح ما هو أضر شيء عليهم، وليس لهم فيها مصلحة، لأنهم إن كان^(١) قصدهم معرفة الحق إذا تبين دليله، فقد تبين دليله بدونها، وإن كان قصدهم التعجيز وإقامة العذر لأنفسهم، إن لم يأت بما طلبوا فإنهم بهذه الحالة - على فرض إتيان ما طلبوا من الآيات - لا يؤمنون قطعاً، فلو جاءهم كل آية، لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.

ولهذا قال الله عنهم: ﴿فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾ أي: كسافة صالح، وعصا موسى، ونحو ذلك، قال الله: ﴿ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها﴾ أي: بهذه الآيات المقترحة، وإنما سنته تقتضي أن من طلبها، ثم حصلت له، فلم يؤمن أن يعاجله بالعقوبة. فالأولون ما آمنوا بها، أفؤ من هؤلاء بها؟ ما الذي فضلهم على أولئك، وما الخير الذي فيهم، يقتضي الإيمان عند وجودها؟ وهذا الاستهزام بمعنى النفي، أي: لا يكون ذلك منهم

(٢) في ب: من أهل.

(١) كذا في ب، وفي أ: كانوا.

الحكيم في تنزيله الأشياء منازلها .

﴿١٨ - ٢٠﴾ **﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون﴾** * وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون * **﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾** * يخبر تعالى، أنه تكفل بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإن كل باطل قيل وجود له، فإن الله ينزل من الحق والعلم والبيان، ما يدمغه فيضمحل، ويتبين لكل أحد بطلانه **﴿فإذا هو زاهق﴾** أي: مضمحل فإن، وهذا عام في جميع المسائل الدينية، لا يورد مبطل شبهة عقلية ولا نقلية، في إحقاق باطل، أو رد حق، إلا وفي أدلة الله، من القواطع العقلية والنقلية، ما يذهب ذلك القول الباطل ويقمعه، فإذا هو متبين بطلانه لكل أحد .

وهذا يتبين باستقراء المسائل، مسألة مسألة، فإنك تجدها كذلك ثم قال: **﴿ولكم﴾** أيها الواصفون الله، بما لا يليق به، من اتخاذ الولد والصاحبة، ومن الأنداد والشركاء، حظكم من ذلك، ونصيبكم الذي تدركون **﴿الويل﴾** والندامة والخسران .

ليس لكم مما قلتم فائدة، ولا يرجع عليكم بعائدة تؤملونها، وتعملون لأجلها، وتسعون في الوصول إليها، إلا عكس مقصودكم، وهو الخيبة والخمران، ثم أخبر أنه له ملك السماوات والأرض وما بينهما، فالكل عبده وبماليكه، فليس لأحد منهم ملك ولا قسط من الملك، ولا معاونه عليه، ولا يشفع إلا بإذن الله، فكيف يتخذ من هؤلاء آلهة، وكيف يجعل الله منها ولدًا؟! فتعالى وتقدس المالك العظيم، الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الصعاب، وخشعت له الملائكة المقربون، وأذعنوا له بالعبادة الدائمة المستمرة أجمعون، ولهذا قال: **﴿ومن عنده﴾** أي: من الملائكة **﴿لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون﴾** أي: لا يملون ولا يسأمونها، لشدة رغبتهن، وكمال عبيتهن، وقوة

معظمين، لعلكم أن تكونوا مقصودين في أموركم كما كنتم سابقاً، مسؤولين من مطالب الدنيا كحالكم الأولى، وهيبات، أين الوصول إلى هذا؟ وقد فات الوقت، وحل بهم العقاب والمقت، وذهب عنهم عزهم وشرفهم وديناهم، وحضرهم ندمهم وتحسرهم؟

ولهذا **﴿قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين﴾** * فما زالت تلك دعواهم * أي: الدعاء بالويل والشبور والندم، والإقرار على أنفسهم بالظلم، وأن الله عادل فيما أحل بهم، **﴿حتى جعلناهم حصيداً خامدين﴾** أي: بمنزلة النبات الذي قد حصد وأنيب، قد خمدت منهم الحركات، وسكنت منهم الأصوات، فاحذروا - أيها المخاطبون - أن تستمروا على تكذيب أشرف الرسل، فيحل بكم كما حل بأولئك .

﴿١٦ - ١٧﴾ **﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين﴾** * لو أردنا أن نتخذ لها أولاداً لآخذناهم من لدنا إن كنا فاعلين * يخبر تعالى أنه ما خلق السماوات والأرض عبثاً ولا لعباً من غير فائدة، بل خلقها بالحق وللحق، ليستدل بها العباد على أنه الخالق العظيم، المدير الحكيم، الرحمن الرحيم، الذي له الكمال كله، والحمد كله، والعزة كلها، الصادق في قوله، الصادقة رسله فيما تحب عنه، وأن القادر على خلقهما مع سعتهما وعظمتها، قادر على إعادة الأجساد بعد موتها، ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته .

﴿لو أردنا أن نتخذ لها أولاداً﴾ على الفرض والتقدير المحال **﴿لآخذناهم من لدنا﴾** أي: من عندنا **﴿إن كنا فاعلين﴾** ولم نظلمكم على ما فيه عبث ولهو، لأن ذلك نقص ومثل سوء، لا نجب أن نريه إياكم، فالسماوات والأرض اللذان بمرأى منكم على الدوام، لا يمكن أن يكون القصد منهما العبث واللهو، كل هذا تثرُّلٌ مع العقول الصغيرة وإقتناعها بجميع الوجوه المقتنعة، فسبحان الخليم الرحيم،

السبيل، فلما لم تسلكوه، وسلكتكم غيره من الطرق، التي فيها ضَعُتْكُمْ وَجَسَّتْكُمْ في الدنيا والآخرة وشقاوتكم فيهما، علم أنه ليس لكم معقول صحيح، ولا رأي: رجيج .

وهذه الآية، مصداقها ما وقع، فإن المؤمنين بالرسول، الذين تذكروا بالقرآن، من الصحابة فمن بعدهم، حصل لهم من الرفعة والعلو الباهر، والصيت العظيم، والشرف على الملوك، ما هو أمر معلوم لكل أحد، كما أنه معلوم ما حصل، لمن لم يرفع بهذا القرآن رأساً، ولم يتد به ويتزك به، من المقت والضعة والتدسية، والشقاوة، فلا سبيل إلى سعادة الدنيا والآخرة إلا بالتذكر بهذا الكتاب .

﴿١١ - ١٥﴾ **﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين﴾** * فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون * لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترقتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون * قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين * فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين * يقول تعالى - محذراً لهؤلاء الظالمين، المكذبين للرسول، بما فعل بالأمم المكذبة لغيره من الرسل - **﴿وكم قصمنا﴾** أي: أهلكتنا بعذاب مستأصل **﴿من قرية﴾** * تلفت عن آخرها **﴿وأنشأنا بعدها قوماً آخرين﴾** وأن هؤلاء المهلكين، لما أحسوا بعذاب الله وعقابه، وبأشرفهم نزوله، لم يمكن لهم الرجوع، ولا طريق لهم إلى النزوع، وإنما ضربوا الأرض بأرجلهم، ندماً وقلقاً، وتحسراً على ما فعلوا وهروباً من وقوعه، فقيل لهم على وجه التهكم بهم: **﴿لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترقتم به ومساكنكم لعلكم تسألون﴾** أي: لا يفيدكم الركض والندم، ولكن إن كان لكم اقتدار، فارجعوا إلى ما أترقتم فيه، من اللذات والمشتهيات، ومساكنكم المزخرفات، ودنياكم التي غرتكم وألتهتكم، حتى جاءكم أمر الله، فكونوا فيها متمكنين، ولذاتها جانين، وفي منازلكم مطمئنين

لعجزهم وفقيرهم، ولكونهم عبداً، قد استحقت أفعالهم وحركاتهم، فليس لهم من التصرف والتدبير في أنفسهم، ولا في غيرهم مقال ذرة.

ثم رجع إلى تهجين حال المشركين، وأنهم اتخذوا من دونه آلهة فقل لهم موبخاً ومقرعاً: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: حججتكم ودليلكم على صحة ما ذهبتم إليه، ولن يجدوا لذلك سبيلاً، بل قد قامت الأدلة القطعية على بطلانه، ولهذا قال: ﴿هَذَا ذَكَرَ مِنْ مَعِيَ وَذَكَرَ مِنْ قَبْلِي﴾ أي: قد اتفقت الكتب والشرائع على صحة ما قلت لكم، من إبطال الشرك، فهذا كتاب الله الذي فيه ذكر كل شيء، بأدلة العقلية والنقلية، وهذه الكتب السابقة كلها، برهان وأدلة لما قلت.

ولما علم أنهم قامت عليهم الحجة والبرهان على بطلان ما ذهبوا إليه علم أنه لا برهان لهم، لأن البرهان القاطع، يجزم أنه لا معارض له، وإلا لم يكن قطعياً، وإن وجد معارضات، فإنها شبه لا تغني من الحق شيئاً.

وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ أي: وإنما أقاموا على ما هم عليه، تقليداً لأسلافهم يجادلون بغير علم ولا هدى، وليس عدم علمهم الحق لحفائه وعموضه، وإنما ذلك لإعراضهم عنه، وإلا فلو التفقتوا إليه أدنى التفات، تبين لهم الحق من الباطل تبيناً واضحاً جلياً، ولهذا قال: ﴿فَهُمْ مَعْرُضُونَ﴾.

ولما حول تعالى على ذكر المتقدمين، وأمر بالرجوع إليها في بيان هذه المسألة، بيّن أنها تبين في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ فكل الرسل، الذين من قبلك مع كتبهم، زبدة رسالتهم وأصلها، الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وبيان أنه الإله الحق المعبود، وأن عبادة ما سواه باطلة.

﴿٢٦٦-٢٦٩﴾ ﴿قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ

وَالسُّفْلَى، عَلَى مَا يَرَى، فِي أَكْمَل مَا يَكُونُ مِنَ الصَّلَاحِ وَالْإِنْتِظَامِ، الَّذِي مَا فِيهِ خَلَلٌ وَلَا عَيْبٌ، وَلَا مَمَانَعَةٌ وَلَا مَعَارِضَةٌ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مَدِيرَهُ وَاحِدٌ، وَرَبُّهُ وَاحِدٌ، وَإِلَهُهُ وَاحِدٌ، فَلَوْ كَانَ لَهُ مَدِيرَانِ وَرَبَّانِ أَوْ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، لَاسْتَحْتَلَّ نِظَامَهُ، وَتَقَوَّضَتْ أَرْكَانُهُ، فَإِنَّمَا يَتِمَّانِعَانِ وَيَتَعَارِضَانِ، وَإِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمَا تَدْبِيرَ شَيْءٍ، وَأَرَادَ الْآخَرُ عَدَمَهُ، فَإِنَّهُ مَحَالٌ وَجُودٌ مُرَادُهُمَا مَعاً، وَوُجُودٌ مُرَادُ أَحَدُهُمَا دُونَ الْآخَرِ، يَدُلُّ عَلَى عَجْزِ الْآخَرِ وَعَدَمِ اقْتِدَارِهِ، وَاتِّفَاقِهِمَا عَلَى مُرَادٍ وَاحِدٍ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ غَيْرِ مُمَكِّنٍ، فَإِذَا تَبَيَّنَ أَنَّ الْقَاهِرَ الَّذِي يُوْجِدُ مُرَادَهُ وَحَدَهُ، مِنْ غَيْرِ مَمَانِعٍ وَلَا مَدَافِعٍ، هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، وَلِهَذَا ذَكَرَ اللَّهُ دَلِيلَ التَّمَانُعِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذْ لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سَبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾.

ومنه - على أحد التأويلين - قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذْ لَا يَتَّبِعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، ولهذا قال هنا: ﴿سَبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي: تنزهه وتقدس عن كل نقص لكمالته وحده، ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات وأوسعها وأعظمها، فربوبية^(١) ما دونه من باب أولى، ﴿عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي: الجاحدون الكافرون، من اتخاذ الولد والصاحبة، وأن يكون له شريك بوجه من الوجوه. ﴿لَا يُسَالُّ عَمَّا يُفَعِّلُ﴾ لعظمته وعزته، وكمال قدرته، لا يقدر أحد أن يمانعه أو يعارضه، لا بقول، ولا بفعل، ولكمال حكمته ووضع الأشياء مواضعها وإتقانها، أحسن شيء يقدره العقل، فلا يتوجه إليه سؤال، لأن خلقه ليس فيه خلل ولا إخلال.

﴿وَهُمْ﴾ أي: المخلوقون كلهم ﴿يَسْأَلُونَ﴾ عن أفعالهم وأقوالهم،

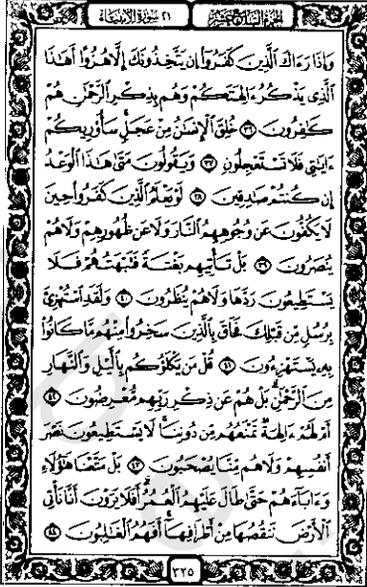
أبدانهم. ﴿يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ أي: مستغرقين في العبادة والتسبيح في جميع أوقاتهم، فليس في أوقاتهم وقت فارغ منها ولا حال منها، وهم على كثرتهم بهذه الصفة، وفي هذا من بيان عظمتهم وجلالة سلطانه وكمال علمه وحكمته، ما يوجب أن لا يعبد إلا هو، ولا تُضَرَّفَ العبادة لغيره.

﴿٢٦٥-٢٦٦﴾ ﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ * لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا فسبحان الله رب العرش عما يصفون * لا يسأل عما يفعل وهم يسألون * أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون * وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون * لما بين تعالى كمال اقتداره وعظمته، وخضوع كل شيء له، أنكروا على المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة من الأرض، في غاية العجز وعدم القدرة ﴿هُم يُنشِرُونَ﴾ استفهام بمعنى النفي، أي: لا يقدرون على نشرهم وحشرهم، يفسرها قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ * لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون ﴿فَالْمُشْرِكُ يَعْبُدُ الْمَخْلُوقَ الَّذِي لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ، وَيَدْعُ الْإِخْلَاصَ لِلَّهِ، الَّذِي لَهُ الْكَمَالُ كُلُّهُ وَيَبِيدُ الْأَمْرَ وَالنَّفْعَ وَالضَّرَّ، وَهَذَا مِنْ عَدَمِ تَوْفِيقِهِ، وَسُوءِ حِظِّهِ، وَتَوَفُّرِ جَهْلِهِ، وَشِدَّةِ ظَلَمِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَصْلِحُ الْوُجُودَ، إِلَّا عَلَىٰ إِلَهٍ وَاحِدٍ، كَمَا أَنَّهُ لَمْ يُوْجَدْ إِلَّا بِرَبِّ وَاحِدٍ.

ولهذا قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا﴾ أي: في السماوات والأرض ﴿آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ في ذاتهما، وفسد من فيهما، من المخلوقات.

وبيان ذلك: أن العالم العلوي

(١) في النسخين: فربوبيته.



ولداً سبحانه بل عباد مكرمون * ولما بين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين * يخبر تعالى عن سفاهة المشركين المكذبين للرسول، وأنهم زعموا - قبحهم الله - أن الله اتخذ ولداً فقالوا: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم، وأخبر عن وصف الملائكة، بأنهم ^(١) عبيد مربيون مديرون، ليس لهم من الأمر شيء، وإنما هم مكرمون عند الله، قد أكرمهم الله، وصبرهم من عبيد كرامته ورحمته، وذلك لما خصهم به من الفضائل والتطهير عن الرذائل، وأنهم في غاية الأدب مع الله، والامتثال لأوامره.

ف **﴿لا يسبقونه بالقول﴾** أي: لا يقولون قولاً مما يتعلق بتدبير المملكة، حتى يقول الله، لكمال أدبهم، وعلمهم بكمال حكمته وعلمه.

﴿وهم بأمره يعملون﴾ أي: مهما أمرهم، امتثلوا لأمره، ومهما دبرهم عليه، فعلوه، فلا يعصونه طرفة عين، ولا يكون لهم عمل بأهواء أنفسهم من دون أمر الله، ومع هذا، فإنه قد أحاط بهم علمه، فعلم **﴿ما بين أيديهم وما خلفهم﴾** أي: أمورهم الماضية والمستقبلية، فلا خروج لهم عن علمه، كما لا خروج لهم عن أمره وتدبيره.

ومن جزئيات وصفهم بأنهم لا يسبقونه بالقول، أنهم لا يشفعون لأحد بدون إذنه ورضاه، فإذا أذن لهم وارتضى من يشفعون فيه، شفّعوا فيه، ولكنه تعالى لا يرضى من القول والعمل إلا ما كان خالصاً لوجهه، متعباً فيه الرسول. وهذه الآية من أدلة إثبات الشفاعة، وأن الملائكة يشفعون.

﴿وهم من خشيته مشفقون﴾ أي: خائفون وجلّون، قد خضعوا لجلاله،

يسبحون.

أي: ومن الأدلة على قدرته وكماله ووحديته ورحمته، أنه لما كانت الأرض لا تستقر إلا بالجبال، أرساها بها وأوتدها، لئلا تميد بالعباد، أي: لئلا تضطرب، فلا يتمكن العباد من السكون فيها، ولا حرثها، ولا الاستقرار بها، فأرساها بالجبال، فحصل بسبب ذلك من المصالح والمنافع ما حصل، ولما كانت الجبال المتصل بعضها ببعض، قد تتصل اتصالاً كثيراً جداً، فلو بقيت بحالها جبلاً شامخات، وقُللاً باذخات، لتعطل الاتصال بين كثير من البلدان.

فمن حكمة الله ورحمته، أن جعل بين تلك الجبال فجاً سبلاً، أي: طرقاً سهلة لا حَزَنَةً، لعلهم يبتدون إلى الوصول إلى مطالبهم من البلدان، ولعلهم يبتدون بالاستدلال بذلك على وحدانية المنان.

﴿وجعلنا السماء سقفاً للأرض التي أقم عليها﴾ محفوظاً من السقوط **﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا﴾** محفوظاً أيضاً من استراق الشياطين للسمع.

﴿وهم عن آياتها معرضون﴾ أي: غافلون لاهون، وهذا عام في جميع آيات السماء، من علوها، وسعتها،

ثم عدد تعالى الأدلة الأتية فقال:

﴿٣١-٣٣﴾ **﴿وجعلنا في الأرض**

رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاً سبلاً لعلهم يبتدون * وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون * وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك

رسول الله ﷺ، استهزؤا به، وقالوا: ﴿أهذا الذي يذكر آلهتكم﴾ أي: أهذا المحتقر بزعمهم، الذي يسب آلهتكم ويذمها ويقع فيها، أي: فلا تبالوا به، ولا تحفظوا به.

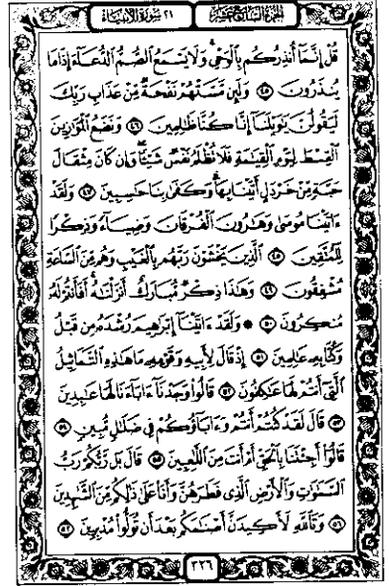
هذا استهزؤهم واحتقارهم له، بما هو من كماله، فإنه الأكمل الأفضل، الذي من فضائله ومكارمه، إخلاص العبادة لله، وذم كل ما يعبد من دونه وتنقصه، وذكر عمله ومكانته، ولكن عمل الازدراء والاستهزاء هؤلاء الكفار، الذين جمعوا كل خلق ذميم، ولو لم يكن إلا كفرهم بالرب وجحدهم لرسله، فصاروا بذلك من أخس الخلق وأرذلهم، ومع هذا، فذكرهم للرحمن، الذي هو أعلى حالاتهم، كافرون بها، لأنه لا يذكرونه، ولا يؤمنون به إلا وهم مشركون، فذكرهم كفر وشرك، فكيف بأحوالهم بعد ذلك؟ ولهذا قال: ﴿وهم يذكر الرحمن هم كافرون﴾ وفي ذكر اسمه ﴿الرحمن﴾ هنا، بيان لقباحة حالهم، وأنهم كيف قابلوا الرحمن - مسدي النعم كلها، ودافع النقم الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع السوء إلا إياه - بالكفر والشرك.

﴿خلق الإنسان من عجل﴾ أي: خلق عجبوا، يبادر الأشياء، ويستعجل بوقوعها، فالمؤمنون يستعجلون عقوبة الله للكافرين، ويتباطؤونها، والكافرون يتولون^(١) ويستعجلون بالعذاب، تكذيباً وعناداً، ويقولون: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ والله تعالى يمهل ولا يهمل، ويمحلم، ويعجل لهم أجلاً مؤقتاً ﴿إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ ولهذا قال: ﴿سأريكم آياتي﴾ أي: في انتقامي ممن كفر بي وعصاني ﴿فلا تستعجلون﴾ ذلك، وكذلك الذين كفروا يقولون: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ قالوا هذا القول، اغتراراً، ولما يحق عليهم

والخير فتنه وإلينا ترجعون ﴿لما كان أعداء الرسول يقولون^(١) تريبصوا به رب المنون. قال الله تعالى: هذا طريق مسلوك، ومعبد منهوك، فلم نجعل لبشر ﴿من قبلك﴾ يا محمد ﴿الخلد﴾ في الدنيا، فإذا مت، فسييل أمثالك، من الرسل والأنبياء والأولياء، وغيرهم.

﴿أفإن مت فهم الخالدون﴾ أي: فهل إذا مت خلدوا بعدك، فليهنهم الخلود إذا إن كان، وليس الأمر كذلك، بل كل من عليها فإن، ولهذا قال: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ وهذا يشمل سائر نفوس الخلاق، وإن هذا كأس لا بد من شربه وإن طال بالعبد المدى، وعمر سنين، ولكن الله تعالى أوجد عباده في الدنيا، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالخير والشر، بالغنى والفقر، والعز والذل، والحياة والموت، فتنه منه تعالى ليلوهم أيم أحسن عملاً، ومن يفتتن عند مواقع الفتن ومن ينجو، ﴿وإلينا ترجعون﴾ فنجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿ومأربك بظلام للعبيد﴾ وهذه الآية، تدل على بطلان قول من يقول ببقاء الخضر، وأنه مخلد في الدنيا، فهو قول لا دليل عليه، ومناقض للأدلة الشرعية.

﴿٣٦ - ٤١﴾ ﴿وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً هذا الذي يذكر آلهتكم وهم يذكر الرحمن هم كافرون﴾ خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون * ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون * بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون * ولقد استهزئء برسول من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون * وهذا من شدة كفرهم، فإن المشركين إذا رأوا



وعظمتها، ولونها الحسن، وإتقانها العجيب، وغير ذلك من المشاهد فيها، من الكواكب الثوابت والسيارات، وشمسها وقمرها النيرات، المتولد عنهما الليل والنهار، وكونهما دائماً في فلكهما سابحين، وكذلك النجوم، فتقوم بسبب ذلك منافع العباد من الحر والبرد، والفصول، ويعرفون حساب عبادتهم ومعاملاتهم، ويستريحون في ليلهم، ويهدؤون ويسكنون، وينتشرون في نهارهم، ويسعون في معاشهم، كل هذه الأمور إذا تدبرها اللبيب، وأمعن فيها النظر، جزم جزمًا لا شك فيه، أن الله جعلها مؤقتة في وقت معلوم، إلى أجل محتم، يقضي العباد منها ما ربه، وتقوم بها منافعهم، وليستمتعوا وينتفعوا، ثم بعد هذا، ستزول وتضمحل، ويفنيها الذي أوجدها، ويسكنها الذي حركها، وينتقل المكلفون إلى دار غير هذه الدار، يجدون فيها جزء أعمالهم، كاملاً موفراً، ويعلم أن المقصود من هذه الدار أن تكون مزرعة لدار القرار، وأنها منزل سفر، لا محل إقامة.

﴿٣٥ - ٣٤﴾ ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون﴾ كل نفس ذائقة الموت وتبلوكم بالشر

(١) في النسختين: يقولون قل تريبصوا.

(٢) في أ الكلمة أقرب إلى أن تكون يقولون وفي ب غير واضحة وكلمة (يتولون) أقرب مناسبة للسياق.

العقاب، وينزل بهم العذاب.

﴿لو يعلم الذين كفروا﴾ حالهم الشنيعة حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم، إذ قد أحاط بهم من كل جانب، وغشيهم من كل مكان ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي: لا ينصرهم غيرهم، فلا نصروا ولا انتصروا، ﴿بل تأتيهم﴾ النار ﴿بغتة فتبهتهم﴾ من الانزعاج والذعر والخوف العظيم، ﴿فلا يستطيعون ردها﴾ إذ هم أذل وأضعف من ذلك.

﴿ولا هم ينظرون﴾ أي: يمهلون، فيؤخر عنهم العذاب، فلو علموا هذه الحالة حق المعرفة، لما استعجلوا بالعذاب، ولخافوه أشد الخوف، ولكن لما ترحل عنهم هذا العلم، قالوا ما قالوا، ولما ذكر استهزاءهم برسوله بقولهم: ﴿أهذا الذي يذكر آلهتكم﴾ سلاة بأن هذا دأب الأمم السالفة مع رسلهم، فقال: ﴿ولقد استهزئوا برسول من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم﴾ أي: نزل بهم ﴿ما كانوا به يستهزؤن﴾ أي: نزل بهم العذاب، وتقطعت عنهم الأسباب، فليحذر هؤلاء، أن يصيبهم ما أصاب أولئك المكذبين.

﴿٤٢ - ٤٤﴾ ﴿قل من يكلوكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون﴾ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون ﴿بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا تأتي الأرض نقصها من أطرافها أنهم الغالبون﴾ يقول تعالى - ذاكراً عجز هؤلاء، الذين اتخذوا من دونه آلهة، وأنهم محتاجون مضطرون إلى ربهم الرحمن، الذي رحته، شملت البر والفاجر، في ليهم ونهارهم - فقال: ﴿قل من يكلوكم﴾ أي: يحرسكم ويحفظكم ﴿بالليل﴾. إذ كنتم نائمين على فرشكم، وذهبت حواسكم ﴿وبالنهار﴾ وقت انتشاركم وغفلتكم ﴿من الرحمن﴾ أي: بدله غيره، أي: هل يحفظكم أحد غيره؟ لا حافظ إلا هو.

﴿بل هم عن ذكر ربهم معرضون﴾ فلماذا أشركوا به، وإلا فلو أقبلوا على ذكر ربهم، وتلقوا نصائحه، لهدوا لرشدهم، ووقفوا في أمرهم.

﴿أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا﴾ أي: إذا أردناهم بسوء، هل من آلهتهم من يقدر على منعهم من ذلك السوء، والشر النازل بهم؟؟

﴿لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون﴾ أي: لا يعانون على أمورهم من جهتنا، وإذا لم يعانون من الله، فهم مخذولون في أمورهم، لا يستطيعون جلب منفعة، ولا دفع مضرة، والذي أوجب لهم استمرارهم على كفرهم، وشركهم قوله: ﴿بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر﴾ أي: أمددناهم بالأموال والبنين، وأطلنا أعمارهم، فاشتغلوا بالتمتع بها، ولهوا بها عما له خلقوا، وطال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، وعسا طغيانهم، وتغلظ كفرانهم، فلو ألفتوا أنظارهم إلى من عن يمينهم وعن يسارهم من الأرض، لم يجدوا إلا هالكاً، ولم يسمعوا إلا صوت ناعية، ولم يحسوا إلا بقرون متتابعة على الهلاك، وقد نصب الموت في كل طريق لاقتناص النفوس الأشراك، ولهذا قال: ﴿أفلا يرون أنا تأتي الأرض نقصها من أطرافها﴾ أي: يموت أهلها وفنائهم، شيئاً فشيئاً، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، فلو رأوا هذه الحالة لم يفتروا ويستمروا على ما هم عليه.

﴿أنهم الغالبون﴾ الذين بوسمهم الخروج عن قدر الله؟ وبطاعتهم الامتناع عن الموت؟ فهل هذا وصفهم حتى يفتروا بطول البقاء؟ أم إذا جاءهم رسول ربهم ليقبض أرواحهم أذعنوا وذلوا، ولم يظهر منهم أدنى ممانعة؟

﴿٤٥ - ٤٦﴾ ﴿قل إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما يندرون﴾ ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين﴾ أي: ﴿قل﴾ يا محمد للناس كلهم: ﴿إنما أنذركم بالوحي﴾ أي: إنما أنا رسول، لا آتيكم بشيء من عندي، ولا عندي خزائن الله، ولا



أعلم الغيب، ولا أقول إني ملك، وإنما أنذركم بما أوحاه الله لي، فإن استجبتم، فقد استجبتم لله، وسيبئكم على ذلك، وإن أعرضتم وعارضتم، فليس بيدي من الأمر شيء، وإنما الأمر لله، والتقدير كله لله.

﴿ولا يسمع الصم الدعاء﴾ أي: الأصم لا يسمع صوتاً، لأن سمعه قد فسد وتعطل، وشرط السماع مع الصوت، أن يوجد عمل قابل لذلك، كذلك الوحي سب حياة القلوب والأرواح، وللفقه عن الله، ولكن إذا كان القلب غير قابل لسماع الهدى، كان بالنسبة للهدى والإيمان بمنزلة الأصم بالنسبة إلى الأصوات، فهؤلاء المشركون، صم عن الهدى، فلا يستغرب عدم اهتدائهم، خصوصاً في هذه الحالة التي لم ياتهم العذاب، ولا منهم آله.

فلو مسهم ﴿نفحة من عذاب ربك﴾ أي: ولو جزء يسيراً ولا يسير من عذابه، ﴿ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين﴾ أي: لم يكن قولهم إلا الدعاء بالويل والشبور والندم، والاعتراف بظلمهم وكفرهم واستحقاقهم للعذاب.

﴿٤٧﴾ ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ يخبر تعالى عن حكمه العدل، وقضائه القسط بين عباده إذا جمعهم في يوم القيامة، وأنه يضع لهم الموازين العادلة، التي يبين فيها مثاقيل الذر، الذي توزن بها الحسنات

بالظلم الذي هم أولى به حيث كسرها ولم يدروا أن تكسيره لها من أفضل مناقبه ومن عدله وتوحيده، وإنما الظالم من اتخذها آلهة، وقد رأى ما يفعل بها **﴿قالوا سمعنا فتى يذكرهم﴾** أي: يعيبهم ويذمهم، ومن هذا شأنه لا يد أن يكون هو الذي كسرها أو أن بعضهم سمعه يذكر أنه سيكفيها **﴿يقال له إبراهيم﴾** فلما تحققوا أنه إبراهيم **﴿قالوا فأتوا به﴾** أي: بإبراهيم **﴿على أعين الناس﴾** أي: بمرأى منهم وسمع **﴿لعلهم يشهدون﴾** أي: يحضرون ما يصنع بمن كسر آلهتهم، وهذا الذي أراد إبراهيم وقصد أن يكون بيان الحق بمشهد من الناس ليشهدوا الحق وتقوم عليهم الحجة، كما قال موسى حين واعد فرعون: **﴿موعدهم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى﴾** فحين حضر الناس وأحضر إبراهيم قالوا له: **﴿أأنت فعلت هذا﴾** أي: التكسير **﴿بآلهتنا يا إبراهيم؟﴾** وهذا استفهام تقرير، أي: فما الذي جراك، وما الذي أوجب لك الإقدام على هذا الأمر؟

فقال إبراهيم والناس شاهدون: **﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾** أي: كسرها غضباً عليها، لما عبدت معه، وأراد أن تكون العبادة منكم لصلتكم الكبير وحده، وهذا الكلام من إبراهيم، القصد منه إلزام الخصم وإقامة الحجة عليه، ولهذا قال: **﴿فاسألوه إن كانوا ينطقون﴾** وأراد الأصنام المكسرة، أسألوها لم كسرت؟ والصلب الذي لم يكسر، أسألوه لأي: شيء كسرها، إن كان عندهم نطق، فيسجيبونكم إلى ذلك، وأنا وأنتم، وكل أحد يدري أنها لا تنطق ولا تتكلم، ولا تنفع ولا تضر، بل ولا تنصر نفسها عن يريدها بأذى.

﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾ أي: ثابت عليهم عقولهم، ورجعت إليهم أحلامهم، وعلموا أنهم ضالون في عبادتها، وأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك، **﴿فقالوا إنكم أنتم الظالمون﴾** فحصل بذلك المقصود، ولزمتهم

عبادة الخالق الرازق المدبر؟

وأما الدليل السمعي، فهو المنقول عن الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإن ما جاؤوا به معصوم، لا يغلط ولا يخبر بغير الحق، ومن أنواع هذا القسم، شهادة أحد من الرسل على ذلك، فلماذا قال إبراهيم: **﴿وأنا على ذلكم﴾** أي: أن الله وحده المعبود وأن عبادة ما سواه باطل **﴿من الشاهدين﴾** وأي: شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة الرسل؟ خصوصاً أولي العزم منهم، خصوصاً خليل الرحمن.

ولما بين أن أصنامهم ليس لها من التدبير شيء أراد أن يريهم بالفعل عجزها وعدم انتصارها وليكيد كيداً يحصل به إقرارهم بذلك فلماذا قال: **﴿وتالله لا أكيدن أصنامكم﴾** أي: أكسرها على وجه الكيد **﴿بعد أن تولوا مدبرين﴾** عنها إلى عيد من أعيادهم، فلما تولوا مدبرين، ذهب إليها بخفية **﴿فجعلهم جذاذاً﴾** أي: كسراً وقطعاً، وكانت مجموعة في بيت واحد، فكسرها كلها، **﴿إلا كبيراً لهم﴾** أي: إلا صنمهم الكبير، فإنه تركه ليقصد سببته، وتأمل هذا الاحتراز العجيب، فإن كل محقوت عند الله، لا يطلق عليه ألفاظ التعظيم، إلا على وجه إضافته لأصحابه، كما كان النبي ﷺ إذا كتب إلى ملوك الأرض المشركين يقول: «إلى عظيم الفرس» «إلى عظيم الروم» ونحو ذلك، ولم يقل «إلى العظيم»، وهنا قال تعالى: **﴿إلا كبيراً لهم﴾** ولم يقل: «كبيراً من أصنامهم». فهذا ينبغي التنبيه له، والاحتراز من تعظيم ما حقره الله، إلا إذا أضيف إلى من عظمه.

وقوله: **﴿لعلهم إليه يرجعون﴾** أي: ترك إبراهيم تكسير صنمهم هذا لأجل أن يرجعوا إليه، ويستملوا حجته، ويلتفتوا إليها، ولا يعرضوا عنها، ولهذا قال في آخرها: **﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾**

فحين رأوا ما حل بأصنامهم من الإهانة والخزي **﴿قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين﴾** فرموا إبراهيم

فأجابوا بغير حجة، جواب العاجز، الذي ليس بيده أدنى شبهة، فقالوا: **﴿وجدنا آباءنا﴾** كذلك يفعلون، فسلكتنا سبيلهم، وتبعناهم على عبادتها، ومن المعلوم أن فعل أحد من الخلق سوى الرسل ليس بحجة، ولا تجوز به القدوة، خصوصاً في أصل الدين، وتوحيد رب العالمين، ولهذا قال لهم إبراهيم مضلاً للجميع: **﴿لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾** أي: ضلال بين واضح، وأي: ضلال أبلغ من ضلالهم في الشرك، وترك التوحيد!! أي: فليس ما قلتم، يصلح للتمسك به، وقد اشتركتم وإياهم في الضلال الواضح، البين لكل أحد، **﴿قالوا﴾** علل وجه الاستغراب لقوله، والاستعظام لما قال، وكيف بادأهم بتسفيهم وتسفيه آباءهم: **﴿أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعين﴾** أي: هذا القول الذي قلته، والذي جئتنا به، هل هو حق وجد؟ أم كلام لنا، كلام لاعب مستهزئ، لا يدري ما يقول؟ وهذا الذي أرادوا، وإنما ردوا الكلام بين الأمرين، لأنهم نزله منزلة المقرر المعلوم عند كل أحد، أن الكلام الذي جاء به إبراهيم كلام سفیه لا يعقل ما يقول، فرد عليهم إبراهيم رداً بين به وجه سفههم وقلة عقولهم فقال: **﴿بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾** فجمع لهم بين الدليل العقلي والدليل السمعي.

أما الدليل العقلي، فإنه قد علم كل أحد حتى هؤلاء الذين جادلهم إبراهيم، أن الله وحده الخالق لجميع المخلوقات، من بني آدم، والملائكة، والجن، والبهائم، والسماوات، والأرض، المدبر لهن بجميع أنواع التدبير، فيكون كل مخلوق مفضولاً مدبراً متصرفاً فيه، ودخل في ذلك جميع ما عبد من دون الله.

أفيلق عند من له أدنى مسكة من عقل وتمييز، أن يعبد مخلوقاً متصرفاً فيه، لا يملك نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ويدع

﴿٧٤-٧٥﴾ **﴿ولو لو طأ آتيناها حكماً وعلماً وننجيناها من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين﴾** وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين ﴿هذا ثناء من الله على رسوله (لوط) عليه السلام بالعلم الشرعي، والحكم بين الناس، بالصواب والسداد، وأن الله أرسله إلى قومه، يدعوهم إلى عبادة الله وينهاهم عما هم عليه من الفواحش، فلبث يدعوهم، فلم يستجيبوا له، فقلب الله عليهم ديارهم وعذبهم عن آخرهم، لأنهم ﴿قوم سوء فاسقين﴾ كذبوا الداعي، وتوعدوه بالإخراج، ونجى الله لوطاً وأهله، فأمره أن يسري بهم ليلاً، ليعبدا عن القرية، فسروا ونجوا، من فضل الله عليهم وميثه .

﴿وأدخلناه في رحمتنا﴾ التي من دخلها، كان من الأمنين، من جميع المخاوف، النائلين كل خير وسعادة وبر وسرور وثناء، وذلك لأنه من الصالحين، الذين صلحت أعمالهم، وزكت أحوالهم، وأصلح الله فاسدهم والصلاح هو السبب لدخول العبد برحمة الله، كما أن الفساد سبب حرمانه الرحمة والخير، وأعظم الناس صلاحاً الأنبياء عليهم السلام، ولهذا يصنفهم بالصلاح، وقال سليمان عليه السلام: ﴿وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ .

﴿٧٦-٧٧﴾ **﴿ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناها وأهله من الكرب العظيم﴾** ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين ﴿أي: وأذكر عبدنا ورسولنا نوحاً عليه السلام، مثنياً مادحاً، حين أرسله الله إلى قومه، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن الشرك به، ويبيدي فيهم ويعيد، ويدعوهم سراً وجهاراً، وليلاً ونهاراً، فلما رآهم لا ينجح فيهم الوعظ، ولا يفيد لديهم الزجر، نادى ربه وقال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ إنك إن تذرهم

هو العزيز الحكيم ﴿ومن بركة الشام، أن كثيراً من الأنبياء كانوا فيها، وأن الله اختارها مهاجراً لخليله، وفيها أحد بيوته الثلاثة المقدسة، وهو بيت المقدس. ﴿ووهبنا له﴾ حين اعتزل قومه ﴿إسحاق ويعقوب﴾ ابن إسحق ﴿نافلة﴾ بعدما كبر، وكانت زوجته عاقراً، فبشرته الملائكة بإسحاق، ﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ ويعقوب هو إسرائيل، الذي كانت منه الأمة العظيمة، وإسماعيل بن إبراهيم، الذي كانت منه الأمة الفاضلة العربية، ومن ذريته سيد الأولين والآخرين. ﴿وكللاً﴾ من إبراهيم وإسحق ويعقوب ﴿جعلنا صالحين﴾ أي: قائمين بحقوقه وحقوق عباده، ومن صلاحهم، أنه جعلهم أئمة يهدون بأمره، وهذا من أكبر نعم الله على عبده أن يكون إماماً يهتدي به المهتدون، ويمشي خلفه السالكون، وذلك لما صبروا، وكانوا بآيات الله يوقنون .

وقوله: ﴿يهدون بأمرنا﴾ أي: يهدون الناس بديننا، لا يأمرن بأهواء أنفسهم، بل بأمر الله ودينه، واتباع مرضاته، ولا يكون العبد إماماً حتى يدعو إلى أمر الله .

﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات﴾ يفعلونها ويدعون الناس إليها، وهذا شامل لجميع الخيرات، من حقوق الله وحقوق العباد .

﴿ورأى الصلاة ولتاء الزكاة﴾ هذا من باب عطف الخاص على العام، لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ولأن منكملهما كما أمر، كان قائماً بدينه، ومن ضيعهما، كان لما سواهما أضيع، ولأن الصلاة أفضل الأعمال، التي فيها حقه، والزكاة أفضل الأعمال، التي فيها الإحسان لخلقه .

﴿وكانوا لنا﴾ أي: لا نغيرنا ﴿عابدين﴾ أي: مديمين على العبادات القلبية والقولية والبدنية في أكثر أوقاتهم، فاستحقوا أن تكون العبادة وصفهم، فاتصفوا بما أمر الله به الخلق، وخلقه لأجله .

الحجة بإقرارهم أن ما هم عليه باطل، وأن فعلهم كفر وظلم، ولكن لم يستمروا على هذه الحالة، ولكن ﴿نكسوا على رؤوسهم﴾ أي: انقلب الأمر عليهم، وانتكست عقولهم، وضلت أحلامهم، فقالوا لإبراهيم: ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ فكيف تتكلم بنا وتستتزيء بنا وتأمرا أن نسألها وأنت تعلم أنها لا تنطق؟

فقال إبراهيم - موبخاً لهم ومعلناً بشرهم على رؤوس الأشهاد، ومبيناً عدم استحقات آلهتهم للعبادة - : ﴿أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم﴾ فلا نفع ولا دفع، ﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله﴾ أي: ما أضلكم وأخسر صفتكم، وما أخسكم، أنتم وما عبدتم من دون الله، إن كنتم تعقلون عرفتم هذه الحال، فلما عدتم العقل، وارتكبت الجهل والضلال على بصيرة، صارت البهائم أحسن حالاً منكم .

فحينئذ لما أفحمهم، ولم يبينوا حجة، استعملوا قوتهم في معاقبته، ف ﴿قالوا حرّوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾ أي: اقتلوه أثناع القتلات، بالإحراق، غضباً لآلهتكم، ونصرة لها. فتعسا لهم تعسا، حيث عبدوا من أقروا أنه يحتاج إلى نصرهم، واتخذوه إلهاً، فانتصر الله لخليله لما ألقوه في النار وقال لها: ﴿كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ فكانت عليه برداً وسلاماً، لم ينله فيها أذى، ولا أحس بمكره .

﴿وأرادوا به كيداً﴾ حيث عزموا على إحراقه، ﴿فجعلناهم الأخرين﴾ أي: في الدنيا والآخرة، كما جعل الله خليله واتباعه هم الرايحين المفلحين .

﴿ونجيناها ولو طأ﴾ وذلك أنه لم يؤمن به من قومه إلا لوط عليه السلام، قيل: إنه ابن أخيه، فنجاه الله، وهاجر ﴿إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾ أي: الشام، فغادر قومه في «بابل» من أرض العراق، ﴿وقال إني مهاجر إلى ربي إنه

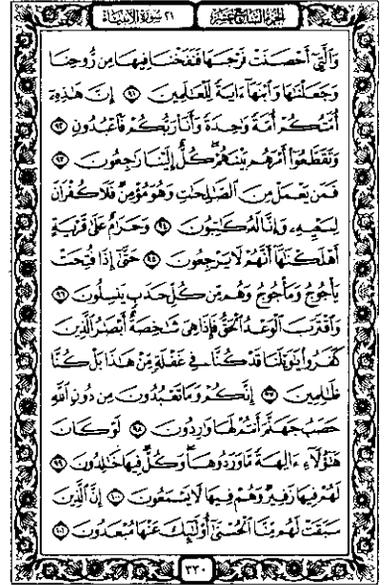
ونجينا من الغم وكذلك تنجي المؤمنين ﴿أي: واذكر عبدنا ورسولنا ذا النون، وهو: يونس، أي: صاحب النون، وهي الحوت، بالذكر الجميل، والثناء الحسن، فإن الله تعالى أرسله إلى قومه، فدعاهم، فلم يؤمنوا، فوعدهم بنزول العذاب بأمد سماه لهم.

[فجاءهم العذاب]، ورأوه عياناً، فعجوا إلى الله، وضجوا وتابوا، فرفع الله عنهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾. وقال: ﴿وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون فآمنوا فممتناهم إلى حين﴾. وهذه الأمة العظيمة، الذين آمنوا بدعوة يونس، من أكبر فضائله، ولكنه عليه الصلاة والسلام ذهب مغاضباً، وأبق عن ربه لذنب من الذنوب التي لم يذكرها الله لنا في كتابه، ولا حاجة لنا إلى تعيينها [لقوله]: ﴿إذ أتى إلى الفلك... وهو مليم﴾ أي: فاعل ما يلام عليه^(١) والظاهر أن^(٢) عجلته ومغاضبته لقومه وخروجه من بين أظهرهم قبل أن يأمره الله بذلك، وظن أن الله لا يقدر عليه، أي: يضيق عليه في بطن الحوت، أو ظن أنه سيفوت الله تعالى، ولا مانع من عروض هذا الظن للكامل من الخلق على وجه لا يستقر ولا يستمر عليه، فركب في السفينة مع أناس، فافترعوا، من يلقون منهم في البحر؟ لما خافوا الغرق إن بقوا كلهم، فأصاب القرعة يونس، فالتقمه الحوت، وذهب به إلى ظلمات البحار، قنادى في تلك الظلمات: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ فأقر الله تعالى بكمال الألوهية، ونزّهه عن كل نقص وعيب وأفة، واعترف بظلم نفسه وجنابته، قال الله تعالى: ﴿فلولا أنه كان من المسبحين، لبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ ولهذا قال هنا:

عبرة للعابدين، الذين ينتفعون بالعبر، فإذا رأوا ما أصابه من البلاء، ثم ما أثابه الله بعد زواله، ونظروا السبب، وجدوه الصبر، ولهذا أثنى الله عليه به في قوله: ﴿إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب﴾ فجعلوه أسوة وقدوة عندما يصيهم الضر.

﴿٨٥ - ٨٦﴾ ﴿وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين﴾ وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين ﴿أي: واذكر عبدنا المصطفى وأنبياءنا المرسلين بأحسن الذكر، وأثنى عليهم أبلغ الثناء، إسماعيل بن إبراهيم، وإدريس، وذا الكفل، نبين من أنبياء بني إسرائيل كل﴾ من هؤلاء المذكورين ﴿من الصابرين﴾ والصبر: هو حبس النفس ومنعها، مما تميل بطبيعتها إليه، وهذا يشمل أنواع الصبر الثلاثة: الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصية الله، والصبر على أقدار الله المؤلمة، فلا يستحق العبد اسم الصبر التام، حتى يوفي هذه الثلاثة حقها. فهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قد وصفهم الله بالصبر، فدل أنهم وفوها حقها، وقاموا بها كما ينبغي، ووصفهم أيضاً بالصلاح، وهو يشمل صلاح القلوب، بمعرفة الله وعيته، والإنابة إليه كل وقت، وصلاح اللسان، بأن يكون رطباً من ذكر الله، وصلاح الجوارح، باشتغالها بطاعة الله وكفها عن المعاصي. فبصبرهم وصلاحهم، أدخلهم الله برحمته، وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين، وأثابهم الثواب العاجل والأجل. ولولم يكن من ثوابهم، إلا أن الله تعالى نوه بذكرهم في العالمين، وجعل لهم لسان صدق في الآخرين، لكفى بذلك شرفاً وفضلاً.

﴿٨٧ - ٨٨﴾ ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ فاستجبنا له



ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين * فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾، أي: واذكر عبدنا ورسولنا أيوب - مثنياً معظماً له، رافعاً لقدرة - حين ابتلاه ببلاء شديد، فوجده صابراً راضياً عنه، وذلك أن الشيطان سلط على جسده، ابتلاء من الله وامتحاناً، فنفخ في جسده، فتفرح قروحاً عظيمة، ومكث مدة طويلة، واشتد به البلاء، ومات أهله، وذهب ماله، فنادى ربه: رب ﴿أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين﴾ فتوسل إلى الله بالإخبار عن حال نفسه، وأنه بلغ الضر منه كل مبلغ، وبرحمة ربه الواسعة العامة فاستجاب الله له، وقال له: ﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾ فركض برجله، فخرجت من ركضته عين ماء باردة، فاغتسل منها وشرب، فأذهب الله ما به من الأذى، ﴿وآتيناه أهله﴾ أي: رددنا عليه أهله وماله.

﴿ومثلهم معهم﴾ بأن منحه الله مع العافية من الأهل والمال شيئاً كثيراً، ﴿رحمة من عندنا﴾ به، حيث صبر ورضي، فأثابه الله ثواباً عاجلاً قبل ثواب الآخرة.

﴿وذكرى للعابدين﴾ أي: جعلناه

(٢) في الأصل: أنه.

(١) زيادة من هامش: ب.

ولما ذكر الأنبياء عليهم السلام، قال مخاطباً للناس: **﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾** أي: هؤلاء الرسل المذكورون، هم أمتكم وأئمتكم الذين بهم تأتمون، ويهديم تفتنون، كلهم على دين واحد، وصراط واحد، والرب أيضاً واحد.

ولهذا قال: **﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾** الذي خلقتكم، وربيتكم بنعمتي، في الدين والدين، فإذا كان الرب واحداً، والنبى واحداً، والدين واحداً، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، بجميع أنواع العبادة كان وظيفتكم والواجب عليكم القيام بها، ولهذا قال: **﴿فَاعْبُدُونِ﴾** فرتب العبادة على ما سبق بالفاء ترتيب المسبب على سببه.

وكان اللائق، الاجتماع على هذا الأمر وعدم التفرق فيه، ولكن البغي والاعتداء، أبياً إلا الافتراق والتقطع. ولهذا قال: **﴿وَتَقَطَّعُوا أَرْهَمَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾** أي: تفرق الأحزاب المنتسبون لاتباع الأنبياء فرقاً، وتشتتوا، كل يدعي أن الحق معه، والباطل مع الفريق الآخر **﴿وَكُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾**.

وقد علم أن المصيب منهم، من كان سالكاً للدين القويم والصراط المستقيم، مؤتماً بالأنبياء، وسيظهر هذا إذا انكشف الغطاء، وبرز الخفاء، وحشر الله الناس لفصل القضاء، فحينئذ يتبين الصادق من الكاذب، ولهذا قال: **﴿كُلٌّ مِنَ الْفِرْقِ الْمَتَفَرِّقَةِ وَغَيْرِهِمْ﴾** **﴿إِنَّا رَاجِعُونَ﴾** أي: فتجازيمهم أتم الجزء.

ثم فصل جزاءه فيهم، منطوقاً ومفهوماً، فقال: **﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾** أي: الأعمال التي شرعتها الرسل، وحثت عليها الكتب **﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾** بالله وبرسله، وما جاؤوا به **﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾** أي: لا نضع سعيه ولا نبطله، بل نضاعفه له أضعافاً كثيرة.

﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ أي: مثبتون له في اللوح المحفوظ، وفي الصحف

كلاً على انفراده، أنى عليهم عموماً فقال: **﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾** أي: يبادرون إليها ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة، ويكملونها على الوجه اللائق الذي ينبغي، ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها إلا انتهزوا الفرصة فيها، **﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾** أي: يسألوننا الأمور المرغوب فيها، من مصالح الدنيا والآخرة، ويتعذرون بنا من الأمور المرهوب منها، من مضار الدارين، وهم راغبون راهبون لا غافلون، لاهون ولا مدلون، **﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾** أي: خاضعين متذللين متضرعين، وهذا لكمال معرفتهم بربهم.

﴿٩١ - ٩٤﴾ **﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رَوْحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابِنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾** **﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾** **﴿وَتَقَطَّعُوا أَرْهَمَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلَّ إِلْبِنَا رَاجِعُونَ﴾** فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون **﴿أَيُّ: واذكر مريم عليها السلام مثنياً عليها مبيناً لقدرها، شاهراً لشرفها فقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾** أي: حفظته من الحرام وقربانه، بل ومن الحلال، فلم تتزوج لاشتغالها بالعبادة، واستغراق وقتها بالخدمة لربها.

وحين جاءها جبريل في صورة بشر سوي تام الخلق والحسن **﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا﴾** فجازاها الله من جنس عملها، ورزقها ولداً من غير أب، بل نفخ فيها جبريل عليه السلام، فحملت بإذن الله.

﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابِنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ حيث حملت به، ووضعت من دون مسيس أحد، وحيث تكلم في المهد، وبرأها بما ظن بها المتهمون، وأخبر عن نفسه في تلك الحالة، وأجرى الله على يديه من الخوارق والمعجزات ما هو معلوم، فكانت وابنها آية للعالمين، يتحدث بها جيلاً بعد جيل، ويعتبر بها المعتبرون.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ أي: الشدة التي وقع فيها.

﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا وعد وبشارة لكل مؤمن وقع في شدة وغم، أن الله تعالى سينجيه منها، ويكشف عنه ويخفف، لإيمانه كما فعل بـ «يونس» عليه السلام.

﴿٨٩ - ٩٠﴾ **﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾** **﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾** أي: واذكر عبدنا ورسولنا زكريا، منوهاً بذكره، ناشراً لمناقبه وفضائله، التي من جملتها هذه المنقبة العظيمة المتضمنة لنصحته للخلق، ورحمة الله إياه، وأنه **﴿نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾** أي: **﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾** **﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾** **﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾** **﴿يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ أَلِّ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾**.

من هذه الآيات علمنا أن قوله **﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾** أنه لما تقارب أجله، خاف أن لا يقوم أحد بعده مقامه في الدعوة إلى الله، والنصح لعباد الله، وأن يكون في وقته فرداً، ولا يخلف من يشفعه ويعينه، على ما قام به، **﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾** أي: خير الباقين، وخير من خلفني بخير، وأنت أرحم بعبادك مني، ولكنني أريد ما يطمئن به قلبي، وتسكن له نفسي، ويجري في موازيني ثوابه، **﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى﴾** **﴿النَّبِيِّ الْكَرِيمِ، الَّذِي لَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾**.

﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ بعدما كانت عاقراً، لا يصلح رحمها للولادة، فأصلح الله رحمها للحمل لأجل نبيه زكريا، وهذا من فوائد الجليس والقرين الصالح، أنه مبارك على قرينه، فصار يحيى مشتركاً بين الوالدين.

ولما ذكر هؤلاء الأنبياء والمرسلين،

التي مع الحفظة . أي : ومن لم يعمل من الصالحات ، أو عملها وهو ليس بمؤمن ، فإنه محروم خاسر في دينه ودينه .

﴿٩٥﴾ ﴿وحرّام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون﴾ أي : يمنع على القرى المهلكة المعذبة الرجوع إلى الدنيا ليستردوا ما فرطوا فيه ، فلا سبيل إلى الرجوع لمن أهلك وعذب ، فليحذر المخاطبون ، أن يستمروا على ما يوجب الإهلاك فيقع بهم ، فلا يمكن رفعه ، وليقلعوا وقت الإمكان والإدراك .

﴿٩٦ - ٩٧﴾ ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون﴾ واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين ﴿ هذا تحذير من الله للناس ، أن يقيموا على الكفر والمعاصي ، وأنه قد قرب افتتاح يأجوج ومأجوج ، وهما قبيلتان عظيمتان من بني آدم ، وقد سد عليهم ذو القرنين ، لما شكى إليه إفسادهم في الأرض ، وفي آخر الزمان يفتح السد عنهم ، فيخرجون إلى الناس في هذه الحالة والوصف ، الذي ذكره الله ، من كل مكان مرتفع ، وهو الحدب ، ينسلون أي : يسرعون . وفي هذا دلالة على كثرتهم الباهرة ، وإسراعهم في الأرض ، إما بذواتهم ، وإما بما خلق الله لهم من الأسباب التي تقرب لهم البعيد ، وتسهل عليهم الصعب ، وأنهم يقهرون الناس ، ويعلون عليهم في الدنيا ، وأنه لا يدان لأحد بقتالهم .

﴿واقترب الوعد الحق﴾ أي : يوم القيامة الذي وعد الله بإتيانه ، ووعدده حق وصدق ، ففي ذلك اليوم ترى أبصار الكفار شاخصة من شدة الأفزع والأهوال المزعجة والقلاقل المقطعة ، وما كانوا يعرفون من جناباتهم وذنوبهم ، وأنهم يدعون بالويل والثبور والندم والحسرة على ما فات ، ويقولون ل : ﴿قد كنا في غفلة من هذا﴾ اليوم العظيم ، فلم نزل فيها مستغرقين ، وفي

لهو الدنيا متمتعين ، حتى أتانا اليقين ، ووردنا القيامة ، فلو كان يموت أحد من الندم والحسرة ، لما توار . ﴿بل كنا ظالمين﴾ اعترفوا بظلمهم وعدل الله فيهم ، فحيثذ يؤمر بهم إلى النار ، هم وما كانوا يعبدون ، ولهذا قال :

﴿٩٨ - ١٠٣﴾ ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون ﴿ لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون﴾ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴿ لا يسمعون حسيها وهم في ما اشتبهت أنفسهم خالدون﴾ لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴿ ، أي : إنكم أيها العابدون مع الله آلهة غيره ﴿حصب جهنم﴾ أي : وقودها وحطبها ﴿أنتم لها واردون﴾ وأصنامكم .

والحكمة في دخول الأصنام النار ، وهي جهاد لا تعقل ، وليس عليها ذنب ، بيان كذب من اتخذها آلهة ، وليزداد عذابهم ، فهذا قال : ﴿لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها﴾ وهذا كقوله تعالى : ﴿ليبين لهم الذي يتخلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين﴾ وكل من العابدين والمعبودين فيها خالدون ، لا يخرجون منها ، ولا يتقلون عنها .

﴿لهم فيها زفير﴾ من شدة العذاب ﴿وهم فيها لا يسمعون﴾ صم بكم عمي ، أو لا يسمعون من الأصوات غير صوتها ، لشدة غليانها واشتداد زفيرها وتغيظها .

ودخول آلهة المشركين النار ، إنما هو الأصنام ، أو من عُبِدَ وهو راض بعبادته ، وأما المسيح ، وعزير ، والملائكة ونحوهم ، ممن عبد من الأولياء ، فإنهم لا يعذبون فيها ، ويدخلون في قوله : ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ أي : سبقت لهم سابقة السعادة في علم الله ، وفي اللوح المحفوظ وفي تيسيرهم في الدنيا لليسرى والأعمال الصالحة .

﴿أولئك عنها﴾ أي : عن النار ﴿مبعدون﴾ فلا يدخلونها ، ولا يكونون قريباً منها ، بل يبعدون عنها غاية البعد ، حتى لا يسمعوها حسيها ، ولا يروا شخصها ، ﴿وهم فيما اشتبهت أنفسهم خالدون﴾ من المآكل ، والمشارب ، والناكح والمناظر ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، مستمر لهم ذلك ، يزداد حسنه على الأحقاب ، ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾ أي : لا يقلقهم إذا فزع الناس أكبر فزع ، وذلك يوم القيامة ، حين تقرب النار ، تنغيظ على الكافرين والعاصين فيفزع الناس لذلك الأمر وهؤلاء لا يحزنهم ، لعلمهم بما يقدمون عليه ، وأن الله قد أمنهم مما يخافون ، ﴿وتلقاهم الملائكة﴾ إذا بعثوا من قبورهم ، وأتوا على النجائب وفدأ لنشورهم ، مهتئين لهم قائلين : ﴿هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾ فليهنكم ما وعدكم الله ، وليعظم استشاركم بما أمامكم من الكرامة ، وليكثر فرحكم وسروركم بما أمنكم الله من المخاوف والمكاره .

﴿١٠٤ - ١٠٥﴾ ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبيادي الصالحون ﴿ يخبر تعالى أنه يوم القيامة يطوي السماوات - على عظمها واتساعها - كما يطوي الكاتب للسجل أي : الورقة المكتوب فيها ، فتنتشر نجومها ، ويكور شمسها وقمرها ، وتزول عن أماكنها ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾ أي : إعادتنا للخلق ، مثل ابتدائنا لخلقهم ، فكما ابتدأنا خلقهم ولم يكونوا شيئاً ، كذلك نعيدهم بعد موتهم .

﴿وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾ ننفذ ما وعدنا ، لكمال قدرته ، وأنه لا تمتنع منه الأشياء .

﴿ولقد كتبنا في الزبور﴾ وهو الكتاب المزبور ، والمراد : الكتب المنزلة ، كالتوراة ونحوها ﴿من بعد

الذكر ﴿ أي : كتيبناه في الكتب المنزلة ، بعد ما كتبنا في الكتاب السابق ، الذي هو اللوح المحفوظ ، وأم الكتاب الذي توافقه جميع التقادير المتأخرة عنه والمكتوب في ذلك : ﴿ أن الأرض ﴾ أي : أرض الجنة ﴿ يرثها عبادي الصالحون ﴾ الذين قاموا بالمأمورات ، واجتنبوا المنهيات ، فهم الذين يورثهم الله الجنات ، كقول أهل الجنة : ﴿ الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء .

ويحتمل أن المراد : الاستخلاف في الأرض ، وأن الصالحين يمكن الله لهم في الأرض ، ويوليهم عليها كقوله تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم . . . الآية .

﴿ ١٠٦ - ١١٢ ﴾ ﴿ إن في هذا لبراهين لقوم عابدين ﴾ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴿ قل إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون ﴾ فإن تولوا فقل أذنتكم على سواء وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون ﴾ إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون ﴾ وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ﴾ قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴿

يشي الله تعالى على كتابه العزيز «القرآن» ويبين كفايته التامة عن كل شيء ، وأنه لا يستغنى عنه فقال : ﴿ إن في هذا لبراهين لقوم عابدين ﴾ أي : يتبلغون به في الوصول إلى ربهم ، وإلى دار كرامته ، فيوصلهم إلى أجل المطالب ، وأفضل الرغائب . وليس للعابدين ، الذين هم أشرف الخلق ، وراءه غاية ، لأنه الكفيل بمعرفة ربهم ، بأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وبالإخبار بالغيوب الصادقة ، وبال دعوة لحقائق الإيمان ، وشواهد الإيقان ، المبين للمأمورات كلها ، والمنهيات جميعها ، المعروف بعيوب النفس والعمل ، والطرق التي ينبغي سلوكها في دقيق الدين وجليله ، والتحذير من طرق الشيطان وبيان مداخله على الإنسان ، فمن لم يغنه

القرآن فلا أغناه الله ، ومن لا يكفيه فلا كفاه الله .

ثم أنسى على رسوله الذي جاء بالقرآن ، فقال : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ فهو رحمة المهداة لعباده ، فالمؤمنون به قبلوا هذه الرحمة وشكروها وقاموا بها ، وغيرهم كفرها ، وبدلوا نعمة الله كفرأ ، وأبوارحة الله ونعمته .

﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد ﴾ الذي لا يستحق العبادة إلا هو ، ولهذا قال : ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ أي : منقادون لعبوديته مستسلمون لألوهيته ، فإن فعلوا فليحمدوا ربهم على ما من عليهم بهذه النعمة التي فاقت المن .

﴿ فإن تولوا ﴾ عن الانقياد لعبودية ربهم ، فحذرهم حلول المثلات ، ونزول العقوبة .

﴿ فقل أذنتكم ﴾ أي : أعلمتكم بالعقوبة ﴿ على سواء ﴾ أي : علمي وعلمكم بذلك مستو ، فلا تقولوا - إذا نزل بكم العذاب : ﴿ ما جاءنا من بشير ولا نذير ﴾ بل الآن ، استوى علمي وعلمكم لما أذرتكم وحذرتكم ، وأعلمتكم بمآل الكفر ، ولم أكنم عنكم شيئاً .

﴿ وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون ﴾ أي : من العذاب ، لأن علمه عند الله ، وهو بيده ، ليس لي من الأمر شيء .

﴿ وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ﴾ أي : لعل تأخير العذاب الذي استعجلتموه شر لكم ، وأن تتمتعوا في الدنيا إلى حين ، ثم يكون أعظم لعقوبتكم .

﴿ قال رب احكم بالحق ﴾ أي : بيننا وبين القوم الكافرين ، فاستجاب الله هذا الدعاء ، وحكم بينهم في الدنيا قبل الآخرة ، بما عاقب الله به الكافرين من وقعة « بدر » وغيرها .

﴿ وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾ أي : نسأل ربنا الرحمن ،



ونستعين به على ما تصفون ، من قولكم سنظهر عليكم ، وسيضمحل دينكم ، فنحن في هذا ، لا نعجب بأنفسنا ، ولا نتكل على حولنا وقوتنا ، وإنما نستعين بالرحمن ، الذي ناصية كل مخلوق بيده ، ونرجوه أن يتم ما استعناه به من رحمته ، وقد فعل ، والله الحمد .

تفسير سورة الحج قيل : مكية ، وقيل : مدنية

﴿ ١ - ٢ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴿ يخاطب الله الناس كافة ، بأن يتقوا ربهم ، الذي رباهم بالنعمة الظاهرة والباطنة ، فحقيق بهم أن يتقوه ، بترك الشرك والفسوق والعصيان ، ويمثلوا بأوامره مهما استطاعوا .

ثم ذكر ما يعينهم على التقوى ، ويحذرهم من تركها ، وهو الإخبار بأحوال القيامة ، فقال :

﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ لا يقدر قدره ، ولا يبلغ كنهه ، ذلك بأنها إذا وقعت الساعة ، رجفت الأرض وارتجت ، وزلزلت زلزالها ،